الاعتصام

للعلامة المحقق الأصولي النظار

الإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد
اللخمي الشاطبي الغرناطي رحمه الله تعالى

المجلد الأول

دار المعرفة
للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

٢٥٩

انظر في هذا الفصل تجد الجواب عن الأناشيد

بمجرد الرؤيا حتى يعرضها على العلم ، لإمكان اختلاط أحد القسمين بالآخر وعلى الجملة فلا يستدل بالرؤيا فى الأحكام إلا ضعيف الْمُنَّةِ. نعم يأتى المرئى تأنيساً وبشارة ونذارة خاصة ، بحيث لا يقطعون بمقتضاها حكماً ، ولا يبنون عليها أصلا ، وهو الاعتدال فى أخذها ، حسبما فهم من الشرع فيها ، والله أعلم .

فصـــل

وقد رأينا أن نختم الكلام فى الباب بفصل جمع جملة من الاستدلالات المتقدمة ، وغيرها فى معناها ، وفيه من نكت هذا الكتاب جملة أخرى ، فهو مما يحتاج إليه بحسب الوقت والحال ، وإن كان فيه طول ولكنه يخدم ما نحن فيه إن شاء الله تعالى .

وذلك أنه وقع السؤال عن قوم يتسمون بالفقراء يزعمون أنهم سلكوا طريق الصوفية ، فيجتمعون فى بعض الليالى ويأخذون فى الذكر الجهورى على صوت واحد ، ثم فى الغناء والرقص ، إلى آخر الليل ، ويحضر معهم بعض المتسمين بالفقهاء ، يترسمون برسم الشيوخ الهداة إلى سلوك ذلك الطريق : هل هذا العمل صحيح فى الشرع أم لا ؟

فوقع الجواب بأن ذلك كله من البدع المحدثات ، المخالفة طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطريقة أصحابه والتابعين لهم بإحسان ، فنفع الله بذلك من شاء من خلقه .

ثم إن الجواب وصل إلى بعض البلدان ، فقامت القيامة على العاملين بتلك البدع ، وخافوا اندراس طريقتهم ، وانقطاع أكلهم بها ، فأرادوا الانتصار لأنفسهم ، بعد أن راموا ذلك بالانتساب إلى شيوخ الصوفية الذين ثبتت فضيلتهم واشتهرت فى الانقطاع إلى الله ، والعمل بالسنة طريقتهم ، فلم يستقر لهم الاستدلال

لكونهم على ضد ما كان عليه القوم ، فإنهم كانوا بنوا نحلتهم على ثلاثة أصول : الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم فى الأخلاق والأفعال ، وأكل الحلال ، وإخلاص النية فى جميع الأعمال ، وهؤلاء قد خالفوهم فى هذه الأصول ، فلا يمكنهم الدخول تحت ترجمتهم .

وكان من قدر الله أن بعض الناس سأل بعض شيوخ الوقت فى مسألة تشبه هذه ، لكن حسن ظاهرها بحيث يكاد باطنها يخفى على غير المتأمل . فأجاب عفا الله عنه على مقتضى ظاهرها من غير تعرض إلى ما هم عليه من البدع والضلالات ، ولما سمع بعضهم بهذا الجواب أرسل به إلى بلدة أخرى ، فأتى به فرحل إلى غير بلده ، وشهر فى شيعته أن بيده حجة لطريقتهم تقهر كل حجة ، وأنه طالب للمناظرة فيها ، فدُعِيَ لذلك فلم يقم فيه ولا قعد ، غير أنه قال : إن هذه حجتى ، وألقى بالبطاقة التى بخط المجيب ، وكان هو ومجيبه[1] وأشياعه يطيرون بها فرحاً ، فوصلت المسألة إلى غرناطة ، وطلب من الجميع النظر فيها . فلم يسع أحد له قوة على النظر فيها الأول[2] أن يظهر وجه الصواب فيها الذى يدان الله به لأنه من النصيحة التى هى الدين القويم ، والصراط المستقيم .

ونص خلاصة السؤال : ما يقول الشيخ فلان فى جماعة من المسلمين يجتمعون فى رباط على ضفة البحر فى الليالى الفاضلة ، يقرأون جزءاً من القرآن ، ويستمعون من كتب الوعظ والرقائق ما أمكن فى الوقت ، ويذكرون الله بأنواع التهليل والتسبيح والتقديس ، ثم يقوم من بينهم قوّالٌ يذكر شيئاً فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، ويلقى من السماع ما تتوق النفس إليه وتشتاق سماعه من صفات

---

(١) كذا ولعلها « ومحبه » أو « ومحبوه » .

(٢) لفظ الأول لا يظهر له معنى هنا وكذا فى السطر ١٩ من الصحيفة ٢٦٣ والظاهر أن المقام مقام الاستثناء وأن العبارة ربما دخل فيها التحريف والسقط .

الصالحين . وذكر آلاء الله ونعمائه ، ويشوقهم بذكر المنازل الحجازية ، والمعاهد النبوية ، فيتواجدون اشتياقاً لذلك . ثم يأكلون ما حضر من الطعام ، ويحمدون الله تعالى ، ويرددون الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . ويبتهلون بالأدعية إلى الله في صلاح أمورهم ، ويدعون للمسلمين ولإمامهم ويفترقون .

فهل يجوز اجتماعهم على ما ذكر؟ أم يمنعون وينكر عليهم ؟ ومن دعاهم من المحبين إلى منزله بقصد التبرك ، هل يجيبون دعوته ويجتمعون على الوجه المذكور أم لا ؟

فأجاب بما محصوله : مجالس تلاوة القرآن وذكر الله هي رياض الجنة ثم أتى بالشواهد على طلب ذكر الله . وأما الإنشادات الشعرية . فإنما الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، وفي القرآن في شعراء الإسلام (إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً) وذلك أن حسان بن ثابت ، وعبد الله ابن رواحة ، وكعباً لما سمعوا قوله تعالى (والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوُون) الآيات . بكوا عند سماعها فنزل الاستثناء وقد أنشد الشعر بين يَدِي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورقت نفسه الكريمة وذرفت عيناه لأبيات أُخت النضر لما طبع عليه من الرأفة والرحمة .

وأما التواجد عند السماع ، فهو في الأصل رقة النفس ، واضطراب القلب فيتأثر الظاهر بتأثر الباطن . قال الله تعالى (الَّذِينَ إذا ذُكِرَ الله وجِلتْ قُلُوبُهُم) أي اضطربت رغباً أو رهباً . وعن اضطراب القلب يحصل اضطراب الجسم ، قال الله تعالى (لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا) الآية . وقال ففروا إلى الله) فإنما التواجد رقة نفسية ، وهزة قلبية ، ونهضة روحانية . وهذا هو التواجد عن وجد . ولا يسمع فيه نكير من الشرع . وذكر السلمي أنه كان يستدل بهذه الآية على حركة الوجد في وقت السماع . وهي (وَرَبَطْنا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا

فَقَالُوا رَبَّنَا) الآية . وكان يقول : إن القلوب مربوطة بالملكوت ، حركتها أنوار الأذكار ، وما يرد عليها من فنون السماع . .

ووراء هذا تواجد لا عن وجد ، فهو مناط الذم ، لمخالفة ما ظهر لما بطن ، وقد يغرب[1] فيه الأمر عند القصد إلى استنهاض العزائم ، وأعمال الحركة فى يقظة القلب النائم « يا أيُّها النَّاس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا[2] ولكن شتان ما بينهما .

وأما من دعا طائفة إلى منزله فتجاب دعوته ، وله فى ذلك قصده ونيته . فهذا ما ظهر تقييده على مقتضى الظاهر ، والله يتولى السرائر ، وإنما الأعمال بالنيات انتهى ما قيده .

فكان مما ظهر لى فى هذا الجواب : أن ما ذكره فى مجالس الذكر صحيح إذا كان على حسب ما اجتمع عليه السلف الصالح ، فإنهم كانوا يجتمعون لتدارس القرآن فيما بينهم ، حتى يتعلم بعضهم من بعض ، ويأخذ بعضهم من بعض ، فهو مجلس من مجالس الذكر التى جاء فى مثلها من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفت بهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » وهو الذى فهمه الصحابة رضى الله تعالى عنهم من الاجتماع على تلاوة كلام الله .

وكذلك الاجتماع على الذكر فإنه اجتماع على ذكر الله ففى رواية أخرى أنه قال « لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة » الحديث المذكور . لا الاجتماع

---

(١) لعله « يعزب » .

(٢) لعله أراد حديث « اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » فاقتبسه بالمعنى ، وهو فى سنن ابن ماجه من حديث سعد بن أبى وقاص بسند جيد .

للذكر على صوت واحد، وإذا اجتمع القوم على التذكر لنعم الله، أو التذاكر في العلم إن كانوا علماء، أو كان فيهم عالم فجلس إليه متعلمون، أو اجتمعوا يذكر بعضهم بعضاً بالعمل بطاعة الله والبعد عن معصيته - وما أشبه ذلك مما كان يعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه، وعمل به الصحابة والتابعون - فهذه المجالس كلها مجالس ذكر وهى التى جاء فيها من الأجر ما جاء.

كما يحكى عن ابن أبي ليلى أنه سئل عن القصص. فقال: أدركت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يجلسون ويحدث هذا بما سمع وهذا بما سمع - فأما أن يجلسوا خطيباً فلا - وكان كالذى نراه معمولا به فى المساجد من اجتماع الطلبة على معلم يقرئهم القرآن أو علما من العلوم الشرعية. أو تجتمع إليه العامة فيعلمهم أمر دينهم ويذكرهم بالله ويبين لهم سنة نبيهم ليعملوا بها، ويبين لهم المحدثات التى هى ضلالة ليحذروا منها، ويتجنبوا مواطنها والعمل بها.

فهذه مجالس الذكر على الحقيقة وهى التى حرمها الله أهل البدع من هؤلاء الفقراء الذين زعموا أنهم سلكوا طريق التصوف - وقل ما تجد منهم من يحسن قراءة الفاتحة فى الصلاة إلا على اللحن، فضلا عن غيرها؛ ولا يعرف كيف يتعبد ولا كيف يستنجى أو يتوضأ أو يغتسل من الجنابة. وكيف يعلمون ذلك وهم قد حرموا مجالس الذكر التى تغشاها الرحمة، وتنزل فيها السكينة، وتحف بها الملائكة فبانطماس هذا النور عنهم ضلوا، فاقتدوا بجهال أمثالهم، وأخذوا يقرأون الأحاديث النبوية والآيات القرآنية فينزلونها على آرائهم، لا على ما قال أهل العلم فيها. فخرجوا عن الصراط المستقيم، إلى أن يجتمعوا ويقرأ أحدهم شيئاً من القرآن يكون حسن الصوت طيب النغمة جيد التلحين تشبه قراءته الغناء المذموم، ثم يقولون: تعالوا نذكر الله فيرفعون أصواتهم يمشون ذلك الذكر مداولة، طائفة فى جهة. وطائفة فى جهة أخرى، على صوت

واحد يشبه الغناء ، ويزعمون أن هذا من مجالس الذكر المندوب إليها ، وكذبوا : فإنه لو كان حقًّا لكان السلف الصالح أولى بإدراكه وفهمه والعمل به ، وإلا فأين فى الكتاب أو فى السنة الاجتماع للذكر على صوت واحد جهرًا عالياً ؟ وقد قال تعالى (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) والمعتدون فى التفسير هم الرافعون أصواتهم بالدعاء .

وعن أبى موسى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « أربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً ، وهو معكم » وهذ الحديث من تمام تفسير الآية ، ولم يكونوا رضى الله عنهم يكبرون على صوت واحد ، ولكنه نهاهم عن رفع الصوت ليكونوا ممتثلين للآية . وقد جاء عن السلف أيضاً النهى عن الاجتماع على الذكر ، والدعاء بالهيئة التى يجتمع عليها هؤلاء المبتدعون وجاء عنهم النهى عن المساجد المتخذة لذلك ، وهى الربط التى يسمونها بالصُّفَّة . ذكر من ذلك ابن وهب وابن وضاح وغيرهما ما فيه كفاية لمن وفقه الله .

فالحاصل من هؤلاء أنهم حسنوا الظن بأنهم فيما هم عليه مصيبون ، وأساءوا الظن بالسلف الصالح أهل العمل الراجح الصريح ، وأهل الدين الصحيح . ثم لما طالبهم لسان الحال بالحجة أخذوا كلام المجيب وهم لا يعلمون ، وقوّلوه ما لا يرضى به العلماء ، وقد بين ذلك فى كلام آخر إذ سئل عن ذكر فقراء زماننا ، فأجاب بأن مجالس الذكر المذكورة فى الأحاديث أنها هى التى يتلى(١) فيها القرآن ، والتى يتعلم فيها العلم والدين ، والتى تعمر بالعلم والتذكير بالآخرة والجنة والنار . كمجالس سفيان الثورى ، والحسن ، وابن سيرين ، وأضرابهم .

---

(١) فى الأصل « يختلا » هكذا ، فصححها ناسخ الورق الذى نطبع عنه « بختلى » وكلاهما غلط .